فرحان صالح

الاسلام والقومية

التطورات التي حصلت في مرحلة ما قبل الاسلام، والتي ادت الى الثورة العربية الاسلامية ـ لم تكن الا نتاجا لحركة التاريخ ، الحركة السياسية والاجتماعية للمجموعة البشرية التي كانت في هذه البقعة من الارض ، والتي تسمى اليوم الاقطار العربية. وتلك القبائل العربية جميعها، والتي شاركت في التحولات التي قامت بها الثورة بقيادة الرسول ، لم تكن الا شعبا واحدا ، هذا اذ اخذنا بمصطلح الامة الذي يقول بأن الامة « مجموعة من البشر تجمعها الرغبة العميقة في العيش المشترك » (١) وبالتأكيد فقد كان هناك صراع حثيث مع قوى خارجية لتحديد هوية المنطقة السياسية والاجتماعية ، فاما ان تتحدد هوية هذا الشعب على يد الاحباش والرومان والفرس ، واما ان تتحدد هويته على يد القوى التي تقطن المنطقة . وكان ان رفض العرب كافة المحتلين الذين ارادوا ان يبقى الوطن العربي متأخرا ومتخلفا ومحتلا .

ولكن ربما هناك من يتساءل كما تساءل الدكتور ناصيف نصار (٢) « ما هو الرباط الذي يجمع افراد الجماعة قبل بعثة الرسول ؟ » . ولم يجب في مقاله على هذا التساؤل . ويتساءل الدكتور نصار قائلا : « هنالك علاقة جدلية عميقة وغامضة بين المعنى الديني والمعنى الاجتماعي التاريخي للامة في التكوين النفسي الثقافي الذي تتحمله المجتمعات العربية من تاريخها الطويل القديم ـ الحديث فالمعنيان يتداخلان ويتساندان بحيث ان ما يفتقر اليه المعنى الديني من تجارب وتطابق في الواقع القائم يوفره بشكل ما المعنى الاجتماعي التاريخي وان ما يفتقر اليه هذا الاخير من عمق تراثي ووضع صوفي يقدمه المعنى الديني بشكل صريح او ضمني » (٣) .

ان الاجابة على ما سبق ، لا بد ان تعيدنا الى الجذور الاولى للوعي القومي في مرحلة ما قبل الاسلام ، اذ من خلال ذلك وفقط نستطيع فهم « الرباط الذي يجمع افراد الجماعة » كما يمكن فهم « العلاقة الجدلية العميقة » ولكنها « ليست الغامضة » ـ بين المعنى الديني ـ وهو السياسة الاسلامية ـ والمعنى الاجتماعي ، الذي يتحدث عنه الكاتب .

ان العودة الى التاريخ في مناقشتنا لهذا الموضوع لتأكيد مفهوم الامة العربية ، لا للتشكيك بهذا المفهوم . وان تأكيدنا على ذلك ليس من اجل تحويل مفهوم القومية ـ والامة ـ الى ايديولوجية ـ كما فعل ويفعل البعض من المنظرين ، بل من اجل تحديد السمات والخصائص التي تجمع « هذه الامة في اطار العيش المشترك » ، وفي التاريخ والعادات والحياة الاقتصادية ومن حيث اللغة المشتركة التي توحد المجموعة البشرية التي كانت تقطن هذه المنطقة والتي تسمى اليوم الاقطار العربية ،ويجب القول بأن السياسة الاسلامية ، والتي اتبعها العرب هي التي اعطت البعد القومي للعرب ، فالقومية من حيث هي مفهوم سياسي اجتماعي ،تتجلى بالارادة المشتركة ، « لم تنشأ الا بعد نشأة الامة »(٤).

من هنا فان الوعي القومي ، الذي تمثل في اللغة والعادات والتقاليد ، مع التاريخ المشترك للعرب ، هو

(١) المجتمع العربي والفكرة القومية ـ دكتور جلال ثروت ـ دار النهضة العربية ـ ص ٢٧ . بيروت ـ ١٩٦٧ .

(٢) دراسات عربية ـ مفهوم الامة في القرآن ـ د . ناصيف نصار ايار ـ ١٩٧٧ .

(٣) مرجع سابق ـ نصار .

(٤) د . جلال ثروت ـ مرجع سابق ص ٣٠ .

الاساس في التفكير القرآني ، رغم عالمية الدين الاسلامي وطموحه كي يجسد هذه العالمية . وقد تمثل هذا الوعي :

١ ـ بلهجة أدبية موحدة تمثلت في الشعر ، ومن ثم استقرت في القرآن الذي حفظ اللغة العربية ، وساعد على توحيدها وعلى ضرب اللهجات المختلفة ، وبذا اصبحت العربية الرابطة الكبرى المشتركة ، ودليل الانتساب الى العرب . وبتوحيد العرب عبر الحركة الاسلامية ، اصبحوا أمة واحدة . وفيما اذا اخذ هذا التوحيد ، طابعا دينيا فان الاساس لهذه الوحدة لم يكن الا على اساس عربي (٥) . وفيما اذا كانت اللغة تعبيرا عن حياة خاصة ، « فانها كانت على مر الزمن عاملا قويا في غزارة الاضافات الفنية للثروة الثقافية ، كما كانت بمثابة الرباط المتين بين ماضي الامة وحاضرها ، اذ ان العرب قامت بينهم منذ الازل البعيد صفات مشتركة اودعت فيهم عاملا نفسيا يشد بعضهم لبعض وان بدا غامضا احيانا او حجبته ظروف طارئة في احيان اخرى ، الى ان نزلت آيات الدين بلسان عربي ، فرفعت من قدرهم انذاك ، واظهرت من مكنون انفسهم ما كان خافيا ، وعمقت الرابطة بينهم وبين الشعوب المتعربة كما هيأه لهم الدين الجديد من وحدة في الاتجاه وفي العقيدة » (٦) . على اننا نرى لزاما التنويه بأن اشارتنا الى الامة العربية ، لا تشير الى معنى لفظ عربي سلالي « اثنولوجي » ضيق كان يمكن ان يطلق فيما مضى على الشعب قديما داخل موطنه الاصلي في شبه الجزيرة . وانما نعني به في مفهومه الجديد ـ الاشارة الى الاقطار التي استمر تأثير غالبية سكانها بتلك المؤثرات الثقافية والاجتماعية ، والتي وحدت احداث التاريخ واحقاب الزمن بينهم وبين الجنس العربي في الوطن والمصلحة واللغة والعادات ، فأصبحوا تاريخا ووطنا ، وان لم يكونوا عربا جنسا . وهذه الظاهرة قائمة في جميع البيئات القومية الاخرى (٧) .

٢ ـ كما تمثل بالتواثب السياسي والصدام الذي حصل ما بين القبائل العربية والامبراطورية المحيطة بها من جهة وفي محاولة لانشاء كيان سياسي تمثل في الكثير من الامارات والدول التي انشئت ، ومنها امارة كندة (٨) . كما تمثل بتوثب العرب واندفاعهم ، ضمن الفكرة القائلة بأن العرب يؤلفون وحدة موجودة ولكن بصورة بدائية ، ثم اصبحت حقيقة بفضل نجاح محمد ، وان فكرة العرب كوحدة جنسية او حضارة متميزة كامنة في استعمال الصفة « عربي » ، والقول بأن القرآن عربي يشير بوضوح الى ان الوحي نزل من اجل الذين يتكلمون بوضوح (*) . وكان الفرق اكيدا بالنسبة للمسلمين فيما يتعلق بالاحباش والبيزنطيين والفرس وربما اليهود (*) . وقد اعتبر محمد نفسه مرسلا في اول الامر الى قومه القريشيين ، ثم أخذ شيئا فشيئا ، وبدرجات لا تبدو بوضوح في القرآن ، يتراءى له هدف اوسع لرسالته ، وقد دعا قبل الهجرة بعض افراد القبائل البدوية الى الايمان بالله عدا مفاوضته مع سكان المدينة . ثم احتلت فكرة الامة القائمة على اساس ديني مكان الصدارة بحلول الهجرة (٩) هذا ويمكن اعتبار رسالة محمد على انها بناء نظام سياسي اجتماعي واقتصادي على اسس دينية ، ولم تكن سياسة القبيلة سوى حادث من ذلك وكان للقبائل المدنية ، التي انضمت للمهاجرين لاقامة الامة الجديدة كان لها حلفاء بين يهود المدينة ، او البدو المجاورين . وقد استفاد هؤلاء الحلفاء منذ البداية جزئيا على الاقل من النظام السياسي الجديد ومن السلم الاسلامي . ويبدو ان محمدا في السنوات الاولى من الفترة المدينية كان قد عقد محالفات مع قبائل اخرى مجاورة على اساس دنيوي صرف ، فهو لم يضع شروطا دينية على المكيين حين دخل مكة دخول المنتصرين واشترك الكثيرون منهم في معركة حنين دون ان يسلموا (١٠) .

هذا وفيما ذهب البعض من الكتاب الى القول بأن العرب قد توحدوا قديما ، مستندين الى ما كان يقوم بين القبائل من معاهدات وتحالف ، فاننا نرى انه لم ترتفع هذه الوحدة الى مرتبة الوحدة القومية . فالمعاهدات لم تكن تتم عن وعي سياسي لدى الافراد ، بل كان الدافع لها تقارب المصلحة في لحظة ما كانت تنهيها المشاحنات التي تنشأ بينها اذا تصادمت مصالحها كما حصل في حلف الفضول ، او عند احتكاك بعضها ببعض عند التنافس على المراعي ، او في غير هذا وذاك ، عند قيام قتال يثور بينها امر عداوة بدافع العصبية الشديدة .

على انه رغم هذا لم تعدم هذه الفترة بعض العناصر التي مثلت بذورا اولى للامة العربية قبل الاسلام ، من ذلك وحده التقاليد (...) كما جمعهم الى حد ما شعور ديني مشترك ، فقد قام بينهم اجماع على القيام بشعيرة

---

(٥) الدكتور عبدالعزيز الدوري ـ ص ١١ ـ الجذور التاريخية للقومية العربية ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٠ .

(٦) الدكتور عبدالغني البشري ـ اثر سياسة القوميات في الحركة القومية العربية ـ ص ٩١ ـ مصر ـ ١٩٦٦ .

(٧) الدكتور عبدالغني البشري ، مرجع سابق ـ ص ٩٢ .

(٨) الدكتور الدوري ـ مرجع سابق ـ ص ١١ .

(*) يتكلمون العربية بوضوح .

(*) ان الوعي القومي يتجلى بشعور تماسك وتفرد المجموعة العربية عن غيرها .

(٩) محمد في المدينة ـ مونتجومري وات ـ تعريب شعبان بركات ـ ص ٢١٥ ـ ٢١٦ ـ ٢١٧ . المكتبة العصرية ـ بيروت .

(١٠) ـ وات ـ مرجع سابق ـ ص ٢١٧ ـ ٢١٨ .

الحج الى معبد واحد وهو كعبة مكة ، حيث كان العرب يقصدون اليها كل عام ، كما كانت تربطهم اعياد مشتركة، وكان العرب يجتمعون كل عام في مواسم معينة ليقيموا اسواقا يتبادلون فيها البيع والشراء « كعكاظ » كما يعرضون فيها ما لديهم من فنون كالرقص والغناء وانشاد الشعر . كل ذلك كان يشعرهم بانهم ينتسبون الى امة واحدة وان لم يسموا الى مرتبة الفكر القومي . وقد كانت اللغة العربية ، كما بينا – من قبل – العامل القوي الذي كان له شان في غرس اصول هذا الوعي في الكيان الناشيء ، مما اوجد لونا من التعاطف الاجتماعي مهد لظهور الامة العربية فيما بعد (١١) . لهذا فقد كانت حركة الاستعراب أسرع واسبق من الرابطة الاسلامية ، وكان ذلك دليلا على التقارب الاجتماعي والاقتصادي قبل ان تتسرب رسالة الدين الحنيف الجديد الى المجتمعات المتاخمة . وظاهر ايضا انه قد قامت قبل الاسلام بآلاف السنين علاقات وطيدة بين القبائل في قلب الجزيرة وتلك التي كانت تسكن حول الكوفة في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة ،وهم بنو تغلب ، وفي الشمال الغربي منها ، وفي سوريا وهم الغساسنة ، فكان الجانبان يتبادلان السلع وتقوم بينهما المعاملات الاقتصادية ،كما تربط بينهما وشائج من القربى والزواج (١٢) . كما ان المصريين وسكان المغرب العربي كانوا يعرفون العرب جيدا سواء عبر القبائل العربية التي وجدت في مصر ام عبر صلاتهم التجارية معهم « وقد ادت هذه العلاقات المستمرة الى شيء من الوحدة والى شيوع مقاييس اجتماعية موحدة وعرف مشترك » (١٣) .

٣ – كما تمثل الوعي الاجتماعي في قلق ديني ، والدين اساس فكري اجتماعي لهم ، اذ تطورت نظرة العرب من عبادة آلهة فردية للقبائل الى الهة اعم واشمل والى الاشتراك في العبادة في بيوت مقدسة ، وتطور بظهور اتجاهات دينية نحو التوحيد الاولي في اليمن والحجاز لعلها تتصل بالتوحيد السامي القديم ، توحيد لا يتصل بالمسيحية التي تدعمها السياسة البيزنطية انئذ ولا ينظر الى اليهودية التي تتمتع ببعض الحماية الساسانية . اتجهت عقائدهم الى اعلى واسمى من الآلهة المحلية ، اطلقوا عليه في غرب الجزيرة اسم الله ، واعتبروا الهتهم وسيطة بينهم وبينه واعتبروا الكعبة بيت الله واخذوا يحجون اليها من الجزيرة ، فصار الحج من عوامل الوحدة بين العرب (١٤) .

ان ظهور الاسلام ، بعد ذلك ، مثل قمة الوعي القومي، وتعبير عن تطور هذا الوعي الذي لم يرض بالبداوة والقبلية ، ولم يرض بالفوضى الاجتماعية والفكرية ،لهذا فقد انشد للوحدة السياسية ووقف ضد التجزئة وضد التبعية ، وكان بداية تكوّن قيم موحدة (١٥) .

ورغم ان الاسلام انتشر من الاندلس الى الهند واواسط اسيا وتوسع بعد ذلك الى بلاد اخرى في اسيا وافريقيا واوروبا ، فان الرقعة العربية وغلبة الجماعات العربية والمستعربة وفي هذا التباين الارضي مثل مادي واضح لذهاب التوافق الاول بين العروبة والاسلام ، واتخاذ كل وجهته المتميزة . فبقيت البلاد الاخرى وان اسلمت غريبة عن العرب بل انها اجتهدت فيما بعد بمختلف السبل لمقاومتهم وللقضاء على كيانهم السياسي (١٦) .

وبذا ، فقد حقق العرب – بالاسلام – معنى لوعيهم وتوثبهم امة واحدة ، ولغة واحدة ، ورسالة تاريخية ، ووجهة واحدة ، ولاول مرة اخرج العرب الى مسرح التاريخ من خلال الصراع بين الشرق الساساني والغرب البيزنطي ، ومن خلال الفوضى والفرقة تحت راية واحدة (١٧) .

***

يتساءل الدكتور نصار في الدراسة السابق ذكرها « اذا كان محمد مرسلا الى امة واحدة فكيف تتحدد هذه الامة » « وكيف التوفيق عند ذاك بين خصوصية الرسالة وشموليتها الانسانية » ويعتبر نصار اخيرا «انه مهما يكن من امر حقيقة الاصل الذي اشتقت منه كلمة امة ، فانها تجمع بين معنى القصد والاتجاه ، ومعنى التحدر والصدور، وتعرض هذين المعنيين كوجهتين للوحدة القائمة بين مجموعة معينة من الناس ، وجهة الوحدة في المصدر ، ووجهة الوحدة في الاتجاه »ويرى انه قد تغلب « في التصور القرآني للامة معنى الوحدة في الاتجاه ، اي الوحدة في العقيدة والطريقة » دون ان يغيب معنى الوحدة في المصدر لسببين رئيسيين مترابطين : طبيعة الرسالة التي قام بها محمد ، وطبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة في عصره ، فالرسالة الجديدة تقتضي

(١١) عبدالغني البشري – اثر سياسة القوميات على الحركة القومية العربية – ص ٩٤ – ٩٥ . كما يمكن ملاحظة اشهر الحرام، حيث اتفق سكان الجزيرة على عدم الاعتداء بعضهم على بعض خلالها. وكلها تدل على الرغبة في العيش المشترك .

(١٢) مجلة معهد البحوث والدراسات العربية – د. محمد رفعت – – ص ٢٨٩ – العدد الرابع ١٩٧٣ – القاهرة .

(١٣) – الدوري – مرجع سابق – ص ١٢ .

(١٤) – الدوري – ص ١٢ .

(١٥) مرجع سابق – ص ١٢ – ١٣ .

(١٦) الدوري – ص ١٨ .

(١٧) الدوري – ص ١٤ .

تكويـن جماعـة جديدة تكون الوحدة فيهـا قائمـة على الايمـان بالعقيدة الجديدة ، وعلى ممارسة احكامها ونظام قيمهـا ، وهذه الجديدة لا تكون جديدة الا بمقدار مـا تتجاوز طبيعـة العلاقة القبلية السائدة بين العرب» (١٨)

***

ان الاجابة على مـا ذكر ، قد سبق مناقشته ، وان بدا ان ما ورد بحاجة الى تحديد وتوسيع واضافة ، خاصة ان هنـاك محاولات لعدم التفريق بين الاسلام ـ والعروبة ، ورغم عفويـه البعض في طرحهم ، الا أن هناك محـاولات مشبوهة ، يجدر الحذر منها ، وهذا الحذر لا يمكن ان يكون فعـالا الا اذا نوقش بما فيه الكفاية ، واجيب على كل مـا يمكن ان يطرحه البعض ، كما ان عدم التفريـق هـذا تبرير لمـا يحصل ووسمه بالسمة الطائفية .

***

ان العرب كغيرهم من الشعوب ، قد مروا بالمراحل المختلفة ، وهذه المراحل كان لهـا الدور الاهم في تحديـد السمات الخاصة لحياتهم السياسية والاجتماعية والثقافية ـ كما مر ـ وبالتالي في تحديد مميزاتهم القومية الخاصة ، فوعي العرب القومي وهو شعورهم بتماسكهم وتفردهم عن المجموعات البشرية الثانية (رغم ان كل الامم قد تطورت عبر احتكاك قيمهـا وعاداتها وتقاليدهـا مع قيم وعادات وتقاليـد الاخرين) قد واجه ولا زال يواجه عقبات فعلية عديدة ، تحددت بضعف تطور القوى الاجتماعية التي تدفع باستمرار الى التقدم ، لا الى التعايش مع القديم ، وحيـن يطرح الدكتور نصار كيفيـة تحديد الامة ، في المفهـوم القرآني ؟ متوصلا الى ان «الجماعة الجديدة تكون الوحدة فيهـا قائمـة على الايمان بالعقيدة الجديدة » وحين يرى انـه « يغلب في التصور القرآني للامة معنى الوحدة فـي الاتجاه أي الوحدة في العقيدة والطريقة » فانه يحـاول التأكيـد على ان الامة ـ هي مفهوم ديني ، قائم علـى الايمان بالعقيدة الجديدة ـ وان « الوحدة في العقيـدة والطريقـة » هي التي تسبق كل الاوضاع التي سبـق وذكرناها . ولكن القرآن بمفاهيمه استند على العـرب وانطلق منهم ، وفيـما اذا كان العرب هم محور الرسالة الاسلامية ، فان القرآن كان موجها اولا الى العرب ـ الى « امة الاجابة ، أي مجموع المؤمنين بالرسـول » حسب تعبير نصار ، وحين يقول الدكتور نصار بأن « لا تطابق بين امة الدعوة وامة الاجابة » فان ذلك لا ينفي ان العرب اثروا وتأثروا بالبيئة وبالسكان الموجودين ، ولا يعنـي ان الانصهار بين عرب الفتوحات والعرب الذين استعربوا من ثم عبر الفتوحات ، وانصهروا بالنظام السياسي والاجتماعي القائم ، قد تم بيـن يوم وليلة ، هذا من جهة ومن جهـة اخرى فانه ليس من المعقول ان ينتصر النظام ، ولا يكون له قوى تعارضه من جهة ، وقوى تسانده ـ والقـوى المساندة ـ توافقت مع السياسة الاسلامية من حيـث اهدافهـا وتطلعاتها ، وانصهرت عبر الارادة المشتركة مع قوى التغيير ـ الاسلام ـ وكانت امة الاجابة ـ اي الموافقة على السياسة الاسلامية ـ وبالتأكيد فان امة الاجابة كـان منهـا الرسول ، ولكن كيف تجلى ذلك فـي القـرآن ؟. وهل من ابهام في تعابيـر القرآن حول العرب ؟ .

ان الآيـة التي تقول « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » موجهة الى العـرب المسلمين ، العرب الذين يقول عنهم الرسول « احب العرب لثـلاث ، لاني عربي والقرآن عربي ولسـان اهل الجنـة عربي » وفي آية اخرى « ولقد نعلم انهم يقولون ، انمـا يعلمه البشر ، لسان الذي يلحدون اليه اعجمي ، وهـذا لسان عربي مبين » وفي آيـة ثانية « انا انزلناه قرآنـا عربيـا لعلكم تعقلون » « انـا جعلناه قرآنا عربيا » « وان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفـا ولم يك من المشركين » ان هذه الآيات بالاضافـة لآيات اخرى تدل دلالة واضحة على مكانة العرب في القرآن وتدل على ان القرآن يعبر اولا عن طموحات العرب ، وصحيح انه ليس هناك من تعريف كامل لمسألة الامة في القرآن ومن خلال آيـة قرآنيـة واحدة ، الا انه لو اخذت مجموعـة آيات فـي القرآن لاستطعنا رصد تصور واضح حول الامة في القرآن .

فنرى في الآيات القرآنية ان اساس الامة هم العرب اولا ، وثانيا ، يتوفر عامل آخر من عوامل الامة ، الا وهـو مسألة اللغة ـ العربية ـ وثالثا ـ مسألة التاريخ المشترك لهذه المجموعة ، فابراهيم (١٩) لم يكـن الا عربيا ـ مـن العرب الصالحين القدمـاء ـ وايضا حينما يرد ذكر ثمود وفي القرآن وعاد ، فلانهـا من القبائل العربية القديمـة

(١٨) دراسات عربية ـ مرجع سابق ـ نصار .

(١٩) ان هناك محاولات من قبل اهل فارس لضرب مسألة السمات المشتركة ، لذا يقول الجواليقي بان ابراهيم اسم قديم ليس بعربي، ولكنه يقدم استشهادات تؤكـد عربيته . يقول :

« عذت بما عاذ بـه ابراهيم — مستقبل القبلة وهـو قائـم
نحـن الى الله فـي كعبته — لم يـزل ذاك علىعهدابراهيم

انه في شعره هذا يتحدث عن القبلة والكعبة والتي هما اسمـاء لمقدسات عربيـة «كانت على عهده في الجزيرة » ويبدو ان الكعبة كان قـد بناهـا ابراهيـم .

ـ راجع المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم ـ تحقيق احمد شاكـر ـ طهـران ـ ١٩٦٦ . ص ١٣ .

« واما ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى »(٢٠) ويذكر ابن خلدون ان « عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وجرهم وحضرموت،هم من عرب الشمال البائدة، اذ يقول « وكان لهذه الامم ملوك ودول في جزيرة العرب ، وامتد ملكهم فيها على الشام ومصر في شعوب منهم ، ويقال انهم انتقلوا الى جزيرة بالقرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام فسكنوا جزيرة العرب» ويذكر ايضا ابن خلدون بأن « قوم عاد والعمالقة قد ملكوا العراق » وحين يذكر نصار بانه « اذ كان معنى الامة الجماعة من الناس ، أية جماعة من الناس ، صعب تبين من هم الرسل في جميع الامم ، واذا كان محمد مرسلا الى امة واحدة فكيف تتحدد هذه الامة ؟ » (٢١)

ولكن اذا توصلنا الى تحديد سمات الامة في القرآن كما مر ، واذا اتفقنا على ان محمدا هو مواطن عربي من الجزيرة ، ومن ثم اصبح رسولا للامة فانه اصبح رسولا للعرب ، ويبدو ان ما نقول واضح جدا في القرآن، حيث جاء في الآية « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه » والاحاديث الشريفة المروية على لسان الرسول واضحة حول العرب « من غش العرب ، لم يدخل شفاعتي ولم تنله مودتي » ـ « حب العرب ايمان وبغضهم نفاق » ـ « اذا ذل العرب ذل الاسلام » ـ اضفان القوى التي يطالبها بالتعاون هم اولا العرب « وتعاونوا على البر والتقوى واعتصموا بحبل الله جميعا ، ولا تفرقوا » « اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته اخوانا » آل عمران (١٣) ـ « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » ـ « ولا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه » كل ذلك يدل على المعنى الذي تهدف السياسة الاسلامية الوصول اليه .

ورغم ان الاسلام انطلق من العرب ، الا انه دعا للمساواة مع الشعوب الاخرى « ان ربكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب . ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى » وايضا « ليس منا من دعا الى عصبية او قاتل على عصبية او مات على عصبية » ـ « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » « ارحموا من في الارض يرحمكم من في السموات » (٢٢)

واخيرا ، يجب انهاء تلك الضبابية ، التي تفصل الدين عن السياسة ، فالدين لم يكن الا السياسة في تلك المرحلة ، والسياسة لم تكن الا انعكاسا للحياة الاقتصادية والاجتماعية ، كما ان الدين لم يكن الا لهدف تغيير الواقع القائم ، وكان اداة تقريب بين عناصر البشر ووسيلة تعاطف وتفاهم بينهم ، وان كان في هذه الناحية يسمو فوق القوميات ـ الا انه كان دائما يرتكز على قوى محددة خاصة بالنسبة للاسلام . فالاسلام حتى العصر العباسي ارتكز على العرب كما ان القوى التي حاولت تفتيت العرب من اجل السيطرة عليهم مجددا كان الصراع بينهم وبين العرب صراعا قوميا كالاتراك مثلا والعجم،« فالمفهوم المادي للتاريخ ، يبين بوضوح ان البشر لا ينقسمون فقط الى طبقات ، بل هم ينقسمون ايضا عموديا الى قبائل وشعوب وامم ودول ،والانقسام يفقد كل معنى لو كان مبنيا على الانقسام الثاني » (٢٣) وقيما اذا كانت القومية ، مفهوما اجتماعيا ذا ابعاد سياسية « والمفهوم الاجتماعي لا بد ان تتغير معانيه بتغير المجتمع الذي يعيش فيه او يعبر عنه ، والمجتمع الحي مجتمع متغير ، يحمل من انواع العلاقات اليوم ما لم يكن يحمله قبل سنوات ، وسيحوي بعد سنوات ما لا يحوي اليوم من هذه العلاقات » (٢٤) فان المسألة القومية عندنا اليوم هي مسألة التحرير والوحدة والديمقراطية الشعبية، اذ لا يمكن المساهمة في بناء الحضارة الانسانية الا عبر سياسة عربية مستقلة واعية غير مرتهنة .

بيروت

---

(٢٠) حين يأتي واضع كتاب « معجم غريب القرآن مستخرجا من صحيح البخاري ـ وضع محمد فؤاد عبدالباقي ـ القاهرة ١٩٥٠» على تفسير الآية التي تقول « ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين » فانه يعرفها هنا على اساس ان ابراهيم ـ معلم الخير ـ ص ٩ ـ كما يفسرها نصار بنفس المعنى ، وللتوسع في فهم آيات الامة في القرآن يمكن مراجعة المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم وضعه محمد فؤاد عبدالباقي ـ مكتبة خياط ـ ص ٨٠ ـ بيروت.

(٢١) مرجع سابق ـ نصار .

(٢٢) ديمقراطية القومية العربية ـ الدكتور محمد عبدالله العربي ـ ص ١١٤ ـ ١١٥ ج.ع.م ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ ١٩٥٩.

(٢٣) الياس مرقص ـ الشيوعية والشرق ـ ص ٣٢٥ ... دار الطليعة بيروت ـ ١٩٦٨ .

(٢٤) د . منيف الرزاز ،تطور معنى القومية ـ ص ١٤ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت .